سُورَةُ النَّبَإِ

سورة النبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا
نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا
شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا
وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ
أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ
كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا
﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾
إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا
يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ
وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا
قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ: ١-٤٠].

* تسمية السورة:

١- التسمية الأشهر لهذه السورة: «سورة النبأ»[(١)]؛ لقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:٢].

٢- وسُمِّيت في بعض المصاحف، وفي «صحيح البخاري»: «سورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾»[(٢)]؛ للآية الأولى فيها.

٣- وسُمِّيت: «سورة ﴿عَمَّ﴾» في بعض المصاحف والكتب[(٣)].

٤- وسمَّاها بعض العلماء: «سورة التساؤل»[(٤)]؛ أخذًا للمصدر من الفعل في قوله تعالى: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾.

٥- وتُسمَّى «سورة المعصرات»[(٥)]؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٦٩٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٢)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٨٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٢)، و«جامع البيان في القراءات السبع» (٤/ ١٦٨٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٥) ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص ٢٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤].

وقد كتب الشيخ محمد عبد الله دراز كتابًا سماه: (النبأ العظيم) ودوَّن فيه من معاني الربانية في القرآن ما يثلج الصدور.

* عدد آياتها: أربعون آية، أو إحدى وأربعون آية، على خلاف بين علماء العَدِّ[1].

* **والسورة مكية بإجماع أهل التفسير**، حكاه ابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والألوسي، وابن عاشور، وغيرهم[2].

* ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ:١]:

﴿عَمَّ﴾: كلمة مركبة من حرفين، هما: «عن»، و«ما»، فأُدْغِمت النون في الميم، وحُذِفت الألف؛ لدخول حرف الجر «عن» على «ما»، والمعنى: عن أي شيء يتساءلون؟

وهذا تساؤل عن التساؤل: عن ماذا يتساءل هؤلاء القوم وعلامَ يختلفون؟!

* ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ٢]:

أي: عن الأمر الهائل المُفْظِع، والحدث الكبير الذي وقع على العقول والقلوب والأسماع وقعًا عظيمًا غير هَيِّن، فهم يتساءلون عنه في مجالسهم ونواديهم وأسواقهم وأسفارهم.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يحتمل أن يكون استكمالًا للسؤال، أي: عن ماذا يتساءلون؟ هل يتساءلون عن النبأ العظيم؟

---

(١) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

أو يكون الأول سؤالًا والثاني جوابًا، والمعنى: أن الله تعالى سأل -وهو أعلم-: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، ثم أجاب بأنهم يتساءلون: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن الموضوع خطير، وكفاه أن الله تعالى سمَّاه نبأً عظيمًا.

هل كان تساؤلهم تساؤل الإنسان الحادِّ الباحث عن الحقيقة، يختارها، ثم يُؤثِرها، ويضحِّي في سبيلها؟ أم تساؤل العابث الذي يريد التشغيب والتسلية والتندُّر؟ أم تساؤل الإنسان المُكذِّب الذي اتخذ قرارًا بالتكذيب قبل أن يسمع الخبر، وإنما يطرح بعض الأسئلة والشبهات حتى يصرف الناس؟!

وقد جاءت أقوال في النبأ العظيم:

١- القرآن[١]، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص:٦٧-٦٨]، فالقرآن نبأ عظيم.

٢- النبي ﷺ[٢]؛ لأن القرآن أُنزِل على شخص رسول الله ﷺ، وبه صار نبيًّا، وقد نُبِّئ بـ (اقرأ)، وأُرْسِل بـ (المدثِّر)، وكان يقول: «**إني نذيرٌ لكم، بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ**»[٣].

٣- البعث[٤]؛ لأنه من أعظم ما جاء به النبي ﷺ، وكان هذا بالنسبة لهم أمرًا مُستغرَبًا، كما قال قائلهم:

حياةٌ ثم موتٌ ثم نَشْرٌ حديثُ خرافةٍ يا أُمَّ عمرو[٥]

وهذه الأقوال كلها حق، وقد يعمُّ المعنى ما هو أشمل وأوسع، وهو أمر الإسلام

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦)، «الدر المنثور» (١٥/ ١٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦)، «الدر المنثور» (١٥/ ١٩٠).

(٥) ينظر: «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» (ص ١٣٠) منسوبًا إلى ابن الزبعرى.

والنبوة والوحي والغيب والآخرة والحساب والجزاء.. فهي عندهم نبأ عظيم يختلفون حولها ويتساءلون.

* ﴿ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ [النبأ:٣]:

والاختلاف هنا يَحتمِل أمرين:

(١) أنه الاختلاف بين المُكذِّبين والمُصدِّقين، وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في العباد: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل:٤٥].

(٢) أن يكون الاختلاف في تشخيصهم للرسول ﷺ، ووصفهم إياه، فمنهم مَن قال: ساحر. ومنهم مَن قال: مجنون. ومنهم مَن قال: يريد الدنيا. ومنهم مَن قال: شاعر، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ [الطور:٣٠-٣١].

ذكر تعالى تساؤلهم واختلافهم، وسمَّى الموضوع الذي تساءلوا واختلفوا حوله بـ﴿ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، وهذا يقودنا إلى قضية التساؤل والاختلاف والاهتمام، وكيف يجب أن يكون؟

١- **الموضوع**؛ بمعنى هل يستحق هذا الموضوع أن يتساءل الناس حوله أو يختلفوا؟!

والذي ينبغي في ذلك أن يُراعَى صدق الموضوع، فيكون جديرًا بأن يبحثه الناس، أو يختلفوا حوله، أو يتساءلوا عنه.

ولو نظرتَ إلى واقع الناس اليوم، بل المسلمين، بل بعض خاصتهم من الفقهاء وطلبة العلم والدعاة؛ لوجدتَ كثيرًا مما يشتغلون به من الأنباء والحوادث والقضايا، لا يستحق هذا الجهد.

وهذه مشكلة تتصل بقصور وخلل في الجانب التربوي؛ فإن الكثير من المعارك والصراعات تدور حول أشخاص أو مسائل وقتية على حساب ما هو أهم، بل حياة المسلمين اليوم أصبحت موبوءة بانشغالات، لا تنفعهم في دينهم، ولا تقرِّبهم إلى الله، ولا تصفِّي قلوبهم، ولا تنفعهم في دنياهم، بحيث تحقِّق لهم التقدم المدني والحضاري، بل هي أفكار وصراعات ومعارك، ولا يريدون أن يتخلَّصوا منها، وهي تشعرهم بالنشوة وتخلق لهم شعورًا طيبًا بالإنجاز وهزيمة الطرف المقابل والاحتشاد الوقتي حول قصة وهمية أو موقف صغير يتم تضخيمه بتكرار الحديث عنه؛ حتى يصبح منفوخًا أو سرابًا يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

ولا يلتفت العاقل بعد سنة أو عشر ليتساءل: ماذا جنى وأفاد من الخروج من موقعة أو غزوة للولوج في أخرى؟ مع ما يصاحب ذلك من تغير النيات وقسوة القلوب والعجز عن الإنجاز الحق والبناء والتشييد، وقد تكون المسألة مرتبطة من وجه آخر بخلل في التفكير ورعاية الأولويات وفقه الموازنات والمقادير.

٢- الاعتماد على المصادر الصادقة، وليس على شائعات أو ظنون أو وسائط مشكوك فيها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، وقبلها قال: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، فهل سمعوا كلُّهم كلام الرسول ﷺ مباشرة؟

كلا، بل كان بعضهم يصل به الحال أن يضع في أذنه القطن، حتى لا يسمع النبي ﷺ؛ فيصيبه شيء من أثره وفعله في القلوب[1].

إن بعض الناس يعتمدون في حكمهم وتصورهم للأمور على وسائط ونَقَلَةٍ يقع منهم التحريف والتدليس والتشويه، ويفقدون حياديتهم واتزانهم وبحثهم عن الحق

(١) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤/ ٢٣٣-٢٣٤)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٥٦١، ١٥٦٢)، و«تاريخ دمشق» (٢٥/ ١١، ١٣)، و«أسد الغابة» (٣/ ٧٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٥).

لصالح أمر سبق أن قرروه واعتقدوه.

والواجب أن يعتمد الإنسان في تلقِّيه على منهج سليم ونقل مصدَّق، أي: آيات قرآنية ظاهرة الدلالة، أو أحاديث نبوية صحيحة مُحْكَمة، ليست ضعيفة ولا مردودة ولا متشابهة، أو وثيقة واضحة فيما يُحكى ويُنْسَب لزيد أو عبيد، لا تكون مزوَّرة ولا محرَّفة.

٣- **قضية الدليل والحجة**، سواء أكان دليلًا عقليًّا، مثل استدلالات القرآن على البعث بخلق الإنسان وبإحياء الأرض بعد موتها، أو كان شرعيًّا بإثبات حكم أو نفيه، أو كان منطقيًّا أو حسيًّا... إلخ.

أما الإِلْف والعادة، أو الموروث، أو قول فلان من الناس، فهذا كله ليس بدليل، وإنما ينبغي أن يكون الدليل على نمط ما في هذه السورة، فمثلًا قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٦-٧]، فهذا نقل صادق قطعي؛ لأنه من الله، ولكنهم لا يؤمنون بالله، وهو دليل عقلي أيضًا؛ لأنهم يشاهدونه بأعينهم، ولا يملكون نفيه أو نسبته لغيره، إذ لم يَدَّعِ أحدٌ أنه فعل ذلك.

٤- **الفهم**، حيث إن كثيرًا من الناس يعادون أشياء أو أفكارًا، ولو سألت أحدهم: ما الموضوع؟ لَحَارَ في جوابه.

وقد يكتب أحدهم نقدًا لفكرة أو مسألة لم يفهمها جيدًا، أو كان سمعها ممن حرَّف ودلَّس، فبنى حكمه على تصور خاطئ، كما قال المتنبِّي:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا ... وآفتُه من الفهمِ السَّقيمِ[1]

ولذلك كان العلماء يعتنون في أبحاثهم بتحرير (محل النزاع)، وهو بيان محل الخلاف، بعد بيان ما هو متفَق عليه مما لا يقبل خلافًا، فيكون سبب الاختلاف هنا:

---

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٢٣٢) وشرحه المنسوب للعكبري (٤/ ١٢٠).

عدم فهم أحدهم للآخر؛ فيتكلم أحدهم عن مسألة، ويتكلم الآخر عن مسألة أخرى، كما يقول أحدهم:

أقولُ له سعدًا فيسمعُه حمدًا ... وينطقُه زيدًا ويكتبه بكرًا

وقد يسمع أحدهم خلافًا، ليس لديه تصور واضح عنه، فينزع إلى أحد الطرفين، دون تحقيق ولا نظر، بل لأول بادرة في ذهنه، أو لأن أحدهم يتكلم بطريقة تعجبه وتناسبه.

٥- المقصد، وأهمية التجرُّد وسلامة الإرادة وحسن النية.

وكم من جدل وحوار بدأ بنية طيبة، ثم تحول مع الزمن إلى وسيلة للانتصار والغلبة، وجرِّ نواصي الخَلْقِ وكسر أذرعتهم وإذلالهم، أو إظهار التفوق والسيطرة، وقد قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

كم هو عدد الذين يتساءلون ويتجادلون بحيادية دون غرض، يبحثون عن الحق بصفاء وتجرد، وأنَّى وجدوه أخذوه!! ومَن كان كذلك فإنه يُوَفَّق للخير، وحتى لو لم يُصِبْ في مسألة ما، إلَّا أنه أصاب حسن النية، فهو مأجور؛ لصدق مقصده واستفراغ وسعه في طلب الحق وعدم الصدود عنه.

* ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤-٥]:

١- ﴿كَلَّا﴾ عند جمهور أهل اللغة كلمة زجر وردع[1]، وهو يعني أن هؤلاء المتسائلين لم يكونوا أهل تحرٍّ وبحث عن الحق، وإنما تساءلوا تساؤل المكذِّب أو الملبِّس أو المشوِّه أو المُعرِض، ولهذا عاتبهم الله تعالى في مطلع البيان.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفرَّاء (٥/ ٢٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٢).

٢- ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تكرار، والتكرار من أجل التوكيد[١].

ولا يعني ذلك أنه ليس هناك معنًى آخرُ، وإن كان التوكيد نفسه هو معنى من أعظم المعاني؛ لأنه دعوة إلى منح الأمر أهمية مضاعفة.

وقد قال بعض المفسرين: إن ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾: عذاب الدنيا، و﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾: عذاب الآخرة[٢].

وعذاب الدنيا حصل لهم في معركة بدر، حينما قُتِلوا وسُحِبوا إلى القَلِيب، وأُتْبِعوا لعنة، ويوم القيامة بئس الرِّفْد المرفود.

وأجود منه أن يقال: إن ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أنهم سيعلمون في الدنيا، أي: كثير منهم أن الله تعالى سينصر دينه ويعزُّ رسوله ﷺ، وأن مكة -التي هي يومئذ قلعة من قلاع الوثنية- سوف يرثها القومُ الذين هم الآن مستضعَفون بمكة، حتى إن بلالًا رضي الله عنه يصعد على الكعبة ويؤذِّن، وقد علموا هذا ورأوه عيانًا بعد سنين.

وأن ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أمر الآخرة، وما يقع فيه من ثواب المؤمنين والمطيعين بالجنة، ومن عقاب العاصين بالنار ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٧-٨٨]، والآية الكريمة في سورة (ص) تشبه الآية الكريمة الواردة في هذه السورة (عم)، أي: سيعلمون نبأ الإسلام، ونبأ القرآن، ونبأ النبي ﷺ، وما سيكون له من رفعة الشأن وظهور الدين وكسر شوكة أعدائه، ثم يعلمون عندما يبعثون صدق ما أخبر به، وأن الميزان هناك ليس ميزانهم المادي، بل ميزان قسط يثقل فيه أمثال صُهيب وبلال وعَمَّار وسلمان وسُمَيَّة رضي الله عنهم، ويطيش أكابر المجرمين وزعماء المكذِّبين، كأبي جهل وأبي لهب وساداتهم الذين ماتوا على الكفر.

---

(١) ينظر: «الصناعتين في الكتابة والشعر» (١/ ١٩٣)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٤٣٨)، و«همع الهوامع» (٢/ ٥٩٤).

(٢) ينظر: «البرهان» للزركشي (٤/ ٢٨٢).

و﴿ ثُمَّ ﴾ تُستخدم للترتيب الزمني، بمعنى عطف المتأخِّر على المتقدِّم، كما هنا لأنهم سيعلمون في الدنيا، ثم يعلمون في الآخرة.

٣- السِّرُّ وراء تهديد الله لهم بقوله: ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ هو أن التهديد سوف يصنَعُ في قلوب بعضهم الإيمانَ، والتهديد بذاته لا يجعل الإنسان يؤمن، وإنما يجعله ينظر إلى الموضوع بجدية، وكأنه يقول لهم: انظروا.. تفكَّروا.. تدبَّروا.. تأمَّلوا: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ [الطارق:١٣-١٤]، إنه جدٌّ لا لعبَ فيه.

إذًا التهديد يرقى إلى تحفيزهم وحملهم على أن يتأمَّلوا، ويتدبَّروا، وينظروا، كما قال سبحانه في الآيات الأخرى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [سبأ:٤٦].

وكثير من المسلمين اليوم عزبوا وغفلوا عن آيات القرآن التي تدعو إلى التفكر والتعقُّل والبحث المتجرِّد والنظر، بل ظن بعضهم أن الدين ينافي استخدام العقل، وأصبح العقل مسبَّة عند آخرين، وربما كان ذلك بسبب الخلط بين العقل والهوى.

وهنا تجد أن التهديد المبطن ليس هو الأسلوب الأوحد ولا الأول الذي جاء في القرآن، فهناك التعليم والترغيب وإثارة الأسئلة، وتحريك العواطف.

ومن أعظم الخطأ أن يعتمد الناس والمربُّون والآباء والدعاة على أسلوب التهديد والتخويف، وكأنه الوحيد في الباب أو الأسبق، بينما الحديث عن الرحمة وزرع الثقة بالمستهدفين وإعطاء الأهمية لهم هي خير ما يقودهم إلى الحق، وإنما يكون التهديد والترهيب في أحوال؛ منها:

١- أن يكون أسلوبًا ضمن أساليب أخرى يكمِّل بعضها بعضًا.

٢- أن يكون لقوم أفرطوا وأمعنوا في الإهمال وعدم المبالاة وترك الانصياع، و«آخر الدواء الكَيُّ».

٣- أن يكون في حالات خاصة يحتاج المرء فيها إلى تحريك الخوف لترك معصية أو مخالفة شهوة.

ثم انتقل الأمر بعد ذلك إلى سرد الأدلة والحجج والبيِّنات، ومخاطبة العقل بالتأمل والبحث في الكون وأسراره.

* ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٦-٧]:

١- السياق استفهام يحفِّز العقول على التفكير، والمعلومة قد تُقدَّم للإنسان جاهزة فيأخذها تقليدًا، أو لا يلتفت إليها بالكلية، فإذا جاءت مصوغة في قالب سؤال، كانت دعوة إلى المشاركة في صياغة الجواب وتوظيف القدرة الذهنية واستحضار المعلومة السابقة.

٢- لم يقل: (ألم نخلق الأرض)، وإنما قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ﴾، والله خلقها ولم تكن مهادًا، ثم جعلها مهادًا بعد ذلك.

فالمهد والبسط جاء متأخِّرًا، ويعزِّز هذا قولُه تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]، فقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد خلقها دُحِيَت، وبُسِطَت، ومُهِّدت، وجُعِلَت قابلة للحياة.

٣- ظاهر السياق في سورة النازعات أن الأرض خُلِقَت قبل السماء؛ لأنه لما قال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٢٩]، والليل والضحى يكون في الأرض؟!

ففي هذه الآية إشارة إلى أن خلق الأرض كان سابقًا، وهكذا هنا، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾، أي: خُلِقَت أولًا، وكانت غير ممهَّدة، ثم بعد ذكر خلق السماء عاد السياق إلى الأرض ليبيِّن جعلها مهادًا، وفي سورة النازعات: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠].

الأرض مهد للإنسان، وهي في مقام الأم الرَّؤوم، كما قال الشَّابيُّ:

وقالت لِيَ الأرضُ لـمَّا سألْت ... أَيا أمُّ هل تكرهينَ البَشَرْ؟!
أبارِكُ في النَّاس أهلَ الطُّموح ... ومَن يستلذُّ ركوبَ الخَطَرْ
ومَن يتهيَّبْ صعودَ الجبال ... يعِشْ أبدَ الدَّهرِ بين الحُفَرْ[1]

٤- في الآية إشعار بالبعث؛ لأن هذه الأرض التي هي مهاد لهم وهم أحياء، هي أيضًا مهاد لهم وهم أموات؛ حيث يُدفَنون فيها، ثم يُبعَثون منها، ولهذا سمَّاها الله تعالى مستودَعًا، تُودَعُ أجسادُهم وعظامُهم فيها، ثم تؤدِّي ما استُودِعَت، فهذه إشارة تمهيدية غير واضحة تهيِّئ العقل لقبول ما بعده، وهذا من لطيف العلم، كما يقول بعض أهل العلم لما تكلموا عن موضوع الخمر وتحريمه، قالوا في قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧]، قالوا: هذا أول إيماءة غير مباشرة إلى منع الخمر؛ لأنه فرَّق بين السَّكَر والرزق الحسن، فجعل السَّكَر شيئًا مغايرًا للرزق الحسن، فهذا يهيِّئ النفوس لقبول ما بعده[2].

وهكذا هنا في قوله تعالى: ﴿مِهَٰدًا﴾، فكما أنه جعل الأرض مهادًا، فإنه جعل هذه الآية تمهيدًا لذكر البعث وما بعده.

٥- جعل الله الأرض مهادًا بالعيش فيها، والمشي عليها، والبناء، وجعلها مستعدة لتحمل تكاليف وجود البشر، كما ترى في رصف الطرقات وحفر الأنفاق والبناء الشاهق وأنواع الاستخدامات التي سخَّر الله الأرض لها.

وكلمة: ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ هنا تشمل الأرض كلها، ولكنه سبحانه وتعالى قال بعد ذلك: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، والجبال من الأرض وإنما خصَّ الجبال؛ لأن لها مهمة

---

(١) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص ٩١).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٢/ ١٤١)، «الدر المنثور» (٥/ ٤٦٧).

خاصة؛ وهي أن تكون أوتادًا للأرض، وهذه هي الآية الوحيدة التي وصف الله تعالى فيها الجبال بأنها أوتاد، ومِن معاني كونها أوتادًا: أنها تثبِّت الأرض، أن تتحرك وتميد، فهي تحفظ توازنها.

ومن إقحام المعاني الغريبة الاستدلال بالآية على أن الأرض ثابتة لا تدور، على أن الله تعالى قال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، وسواء كان هذا في الآخرة كما يدل عليه السياق، أو في الدنيا كما يدل عليه اللحاق ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، فهو يدل على أن الحواس قد يقع لها انخداع وترى الأشياء على غير حقيقتها، فالاستدلال بظواهر الحس على الحقائق العلمية مضلِّل.

* ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ: ٨]:

١- اختلف السياق هنا عما كان عليه في الآية الأولى، حيث كان بصيغة الاستفهام: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾. ثم صار هاهنا خبرًا ماضيًا، وهو مقصود في تغيير رتابة السؤال؛ لأنه مع الطول يُؤْلَف فيحتاج إلى تنويع، كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١-٢]، ولم يقل: (ألم نضع)؟

٢- في الآية إشارة إلى جواب السؤال؛ لأنه لما قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾، كان المعنى: قد جعلنا الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا؛ ولذلك عطف عليه سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: أصنافًا وأنواعًا وأشباهًا، فهناك الذكر والأنثى، وهذا سرٌّ من أسرار الألوهية؛ لأن الزوجين نقيضان، فالذكر غير الأنثى، ومع ذلك فخَلْقُهما في غاية الحكمة والرحمة والإبداع؛ وما كان الرجل ليشعر بسعادة الحياة وهنائها لولا المرأة، ولا المرأة تشعر بكمال سعادة الحياة لولا الرجل، فجعل الله تعالى الأنثى تحنُّ للذكر، والذكر يحنُّ للأنثى، كما قال سبحانه: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١].

٣- أن قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ لا يدل على حصر الأزواج من الخلق على جنس الرجال والنساء، بل يشمل أجناسًا كثيرة من المخلوقات، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، أي: في الألوان، وفي الأعداد، وفي الأحوال.

ومن ذلك: الغنى والفقر: ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾، يعني: غنيًّا وفقيرًا، وهذا فيه جانب الشكر والإحسان للغني، وجانب الصبر والرضا للفقير.. الصحيح والمريض.. القوي والضعيف.. المأمور والأمير.. العالم والجاهل.. الذكي والبليد.. إلى بقية ألوان الزوجية التي خلقها الله عز وجل.

وهذا التنويع موجِب للشكر لمَن فضَّله الله على غيره.

ومن الجانب الآخر هو مقتضٍ للصبر؛ فالإنسان إذا ابتُلِي بمصيبة، أو بآفة، أو بعاهة، أو بفقر، أو بمرض؛ عليه أن يصبر.

وهو مدعاة للإحسان: ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، إذ جعل الله تعالى بين العباد التعاون؛ لأن التعاون بين الضدَّين أحيانًا يُوجِد حالة من الانسجام في الحياة، ولا تستقيم الحياة إلا بهذا.

وكما هو مَدْرَجٌ إلى التكامل؛ فإن الحياة لا بد فيها من التكامل، فكل إنسان يتكامل مع الآخر، فهذا يبني، وهذا يصنع، وهذا يزرع، وهذا يتعلم، وهذا يفكِّر، وهذا يكتب، وهذا يقرأ، فمن خلال مجموع هذه الأعمال يوجد تكامل رائع في الحياة، وهو من أسرار الصنعة الإلهية.

ثم إن التعبير بصيغة الماضي هنا: ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ ﴾ إشارة إلى تقرير المسألة وبدهيتها ووضوحها للمخاطبين؛ لأن منهم مَن لا يتأمل السماء والأرض والجبال، لكن الزوجية قضية ضرورية يعايشونها في ذاتهم ويرونها فيمَن حولهم، فهي مما لا يحتاج إلى استدلال، بل هي نفسها دليل وحجة.

* ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ [النبأ: ٩]:

١- أضاف النوم إلى الناس، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾؛ لأنه لا يغني فيه أحد عن أحد، فكل إنسان يحتاجه، ولو أن في الناس مَن لا ينام مطلقًا، لشعر هذا الإنسان بالحرمان والنقص والعَطَب والخلل؛ فالنوم من الأشياء الضرورية لكل إنسان، فلا غنى عنه، ولا حياة لمَن حُرِمه.

وقد ذكر الأطباء مدة معينة- تختلف باختلاف الأجساد- إذا عاشها الإنسان دون نوم فإنه يموت؛ إذ لا بد لهذا الجسم أن يأخذ حقَّه من الراحة والاسترخاء، وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن حزم في «طوق الحمامة»(١).

٢- لم يقل الله: (ليلكم)؛ لأنه سيأتي في الآية التي بعدها، ولأن الليل ليس خاصًّا بالإنسان، بل المخلوقات على الأرض يتلبَّسها الليل، حتى إن إحدى الشركات في اليابان وضعت مصابيح ضخمة في منطقة معينة تضيء الليل كله، فاكتشف المُزارع- بجانب هذه الشركة- أن زرعه تأثر بهذه الإضاءات الليلية، فرفع عليهم دعوى وكسبها، وتبيَّن أنه حتى النباتات وغيرها تحتاج إلى هذا الظلام الذي يلفها، أما النوم فهو للأرواح(٢).

٣- يقول أهل اللغة: السُّبات هو: القطْعُ، أي: أن النوم يقطع حياة الإنسان الرتيبة(٣)؛ لأن الإنسان في النهار يعمل ويكدح، وربما يصاب بأمراض جراء ضغوط العمل والحياة، وقد ينام المرء على تعب وعناء ويصحو على سكينة وراحة وهدوء وسعادة.

ومن معاني «السُّبات» أن النوم يأخذك بالقهر والقوة، حتى الجبابرة والسلاطين

(١) ينظر: «طوق الحمامة» (ص ٣٠٧).

(٢) ينظر: «دراسات قرآنية» للأستاذ محمد قطب (ص ١٥٩).

(٣) ينظر: «القاموس المحيط» (١/ ١٩٥)، و«لسان العرب» (٢/ ٣٦)، و«تاج العروس» (١/ ١٠٩٤).

يأخذهم النوم أخذًا، ثم يرمي بهم في مهاجعهم، حيث النَّفَس يتردد، بلا حسٍّ ولا إدراك، ولا يسمع أحدهم السؤال، ولا يردُّ الجواب، ولا يعي ما حوله، وهذه أعجوبة، أما كيف يتم النوم؟ فهو سرٌّ من الأسرار الإلهية.

٤- النوم نفسه يخلُد فيه الإنسان إلى عالم آخر مستقلٍّ، فيه أحلام ورُؤى، وأحوال غريبة؛ فالنائم يسافر ويطير، ويكتب ويمضي عقودًا، ويهادن ويحارب، ويرى الموتى أحياء، والأشياء على غير مألوفها، وقد جعل تعالى النوم أَمَنَةً، كما قال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال:١١]، حتى كان السيف يسقط من يد الصحابي من شدة النعاس، وخلال ثوانٍ يصحو، فإذا به قد استعاد قوته ونشاطه[1]، فالنوم يقطع عن الإنسان التعب والإجهاد والإعياء، ويعيد له قوته وحيويته، وكأنه يضخ فيه طاقة روحية جديدة.

والعلماء يسمون النوم: الوفاة الصغرى. أخذًا من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

٥- جعل الله تعالى النائم قابلًا للاستيقاظ من ذاته أو من غيره، بخلاف الحالات الاستثنائية، كما في قصة أصحاب الكهف: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١].

فمِن رحمة الله أن جعل النوم سُباتًا، يقبل أنك تقطعه، وتستيقظ وتذهب لحاجاتك ومقاصدك، فيكون النوم بقدر حاجة الإنسان.

٦- النوم ضرورة من ضرورات صحة البدن، ولا يزال العلماء يؤكِّدون أن الإنسان يدفع ثمن قلة النوم أو اضطرابه من صحته وحياته؛ بسبب الإجهاد،

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٢)، و«تفسير النيسابوري» (٢/ ٢٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٤/ ١٣٣).

وضعف التركيز، وهَرَم الذاكرة والنسيان، ويؤثِّر في الاستقرار العاطفي والنفسي، فيكون سببًا لسرعة الانفعال والغضب، كما يؤثِّر على خلايا المخ، ولهذا فعلى الإنسان أن يأخذ القدر الكافي من النوم، وهو يختلف من شخص لآخر، ولكن غالب الناس يحتاجون ما بين ستٍّ إلى ثمانِ ساعات، من أجل المحافظة على حيويتهم وقوتهم ونشاطهم، وتجنب التعرض للأزمات النفسية أو القلبية، وإذا قسمها الإنسان بين الليل والقيلولة كان أنفع، وهو ما كان يفعله النبي ﷺ.

ونوم الليل أفضل من نوم النهار، وبعض العلماء يقولون: إن نوم ساعة واحدة في الليل أفضل من نوم ساعتين في النهار؛ لأن الليل مناسب بهدوئه وصفائه للاسترخاء، وأخذ قسط من الراحة، واسترخاء ساعة في الليل يعادل نوم نصف ساعة حتى لو لم يستطع أن ينام!

* ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ [النبأ:١٠]:

١- قوله: ﴿لِبَاسًا﴾ أي: للأرض، فهو أشبه ما يكون بالثوب أو الجلباب الذي تلبسه الأرض.

وهو لباس للإنسان ذاته، يمنحه قَدْرًا من الاسترخاء وهدوء الأعصاب، وأكثر الناس لا يجدون الراحة إلا في الليل، ففيه من لحظات الأنس، والسمر، والجلسات الممتعة ما ليس في النهار.

٢- وصف الله الليل بالسَّكَن ووصف العلاقة الزوجية بالسَّكَن ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١]. والمرأة أشبه بالليل، سترًا وروحانية وعاطفة، والرجل أشبه بالنهار ظهورًا وتجليًا ودأبًا واحتمالًا، وفي الحياة تناسق رائع بين مهمات الرجل ومهمات المرأة، وطبيعة كل منهما، فالزوجية تتجلَّى في الليل والنهار، وفي السماء والأرض، كما تتجلَّى في الذكر والأنثى؛ ولذا أقسم الله بذلك في مواضع كما في سورة الليل.

والليل غالبًا ملتقى الحياة الزوجية ومستراحها بعد الفراق والعناء والسبح

الطويل مع الناس.

٣- ذكر القرطبي في «تفسيره» أن بعض المغفَّلين قالوا: ما دام الليل لباسًا، فللإنسان أن يصلِّي فيه وهو عُريان؛ لأن الليل بحدِّ ذاته يغني عن اللباس[١]. وهذا من أقوال أهل الغفلة، فكون الليل لباسًا فيه معانٍ متعدِّدة، لكنه لا يغني عن اللباس الحسِّي الذي امتنَّ الله به على الناس، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقد جاء عن النبي ﷺ: «**الله أحق أن يُستحيا منه**»[٢].

٤- من معاني: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴾ أن الناس ينقطعون في الليل غالبًا عن الخروج من منازلهم، ويأوون إلى بيوتهم أو حقولهم ويجتمع شملهم على طعامهم وشرابهم ونومهم، فتكون المساكن كاللباس لهم.

وبعض الناس عكسوا الحال، فجعلوا الليلَ نهارًا، والنهارَ ليلًا، على أن غالب الناس من الأمم المختلفة يهجعون أول الليل إلى مضاجعهم ويأوون إلى بيوتهم، ويقومون مبكرين إلى أعمالهم ومصالحهم.

حين يشرق الصباح يصحو الكون ويتهيَّأ ليوم جديد، فلتكن روحك متطلعة لهذا الصباح الجميل، قانعة راضية متفائلة بعطاء الله الكريم، داعية بالخير للعباد.

* ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴾ [النبأ: ١١]:

١- قال: ﴿ وَجَعَلۡنَا ﴾، ولم يقل: (والنهار معاشًا)؛ لأن الآيات قصيرة، فلو قال: (والنهار معاشًا) فإن الآية تكون قد اختُزلت كثيرًا.

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٣٤، ٢٠٠٤٠)، والبخاري معلقًا، كتاب الغسل، باب من اغتسل وحده في الخلوة (١/ ٦٤)، وأبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩)، وابن ماجه (١٩٢٠)، والحاكم (٤/ ١٧٩) من حديث بَهْز بن حَكِيم عن أبيه عن جده ﷺ.

وفيه بيان أن الاستفهام في ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ﴾ هو تقريري للإثبات؛ ولذا عقَّب عليه بفعل ماضٍ يدل على حصول الفعل، وعلى الفاعل وهو الله تعالى.

٢- في الآية تكرار التذكير بالنعمة واستحضارها؛ لأن كثيرًا من الناس بسبب الإلف ينسون هذه النعم، فهذه الشمس التي تشرق عليهم كل يوم ثم تغيب، لا يدركون قيمتها؛ لاعتيادهم عليها، وكذلك مَن يعيشون في المناطق الخضراء الممطرة، لا يلفت نظرهم ما فيها من الجمال الأخَّاذ مما يلفت نظر غيرهم، وكذلك أهل الصحراء والرمال أو السواحل والبحار..

٣- ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ فيه تأكيد الردِّ على مَن لا يؤمنون بالصانع سبحانه من الدهريين والطبائعيين، كالمانوية الذين يجعلون آلهة للنور وآلهة للظلام... فالآيات تدحض هذه المقولة، وتبين أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، وأنه خلق النور والظلام؛ كما قال المتنبِّي:

وكم لظلامِ الليلِ عندك من يدٍ ... تخبِّرُ أن المانَوِيَّةَ تكذِبُ[1]

٤- أن أقرب ما يكون من معنى كلمة: ﴿ مَعَاشًا ﴾ أنه ظرف لطلب العيش، والتصرف في شؤون الرزق، وهذا ظاهر كما هو حال أكثر الأمم والشعوب.

* ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبأ:١٢]:

١- البناء يدل على القوة: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات:٤٧]، و«الأيد» هنا: القوة، فالله تعالى هو الذي بنى الكون كلَّه، ومن ذلك السماء ﴿ فَوْقَكُمْ ﴾، شيء ترونه وتشاهدونه في عُلوِّه وشموخه، والبناء كلما ارتفع وعلا فإنه يدل على قدرة الصانع، وفي القديم كان الناس يتفاخرون بالمباني الشامخة العظيمة، ولا زالوا يتفاخرون بالعمائر الشاهقة، وناطحات السحاب، والمباني الضخمة، ولذلك جاء السياق في القرآن الكريم يمتنُّ عليهم، ويذكِّرهم بالقدرة الإلهية في بناء السماء العالية

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٤٦٦)، وشرحه المنسوب للعكبري (١/ ١٧٨).

التي لا يتصوَّرون سعتها وأبعادها، والإنسان يرى النجوم حوله تلمع، لكنه لا يدري أنها ذرات في مجرات تسبح في فضاء واسع لا يحيط به إلا الله.

وهذا ليس بحديث خرافة وتخرص، بل هو صنع الله العظيم، والإنسان أحيانًا لا يستطيع أن يستوعب هذه العظمة بعقله، وإن كان العلماء المتخصِّصون يُدرِكون شيئًا مُذهِلًا، وبخاصة المختصين في علم الفلك، إذ يشاهدون من خلال المكبِّرات هذه القبةَ الزرقاءَ، ونجومها وشموسها وأقمارها ومجرَّاتها، أشياء هائلة تُذهِل العقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦].

٢- ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾: المراد: السموات السبع، وصفها سبحانه بكونها ﴿شِدَادًا﴾؛ لكونها قوية مُحكَمة مُحَصَّنة، بحيث لا تستطيع الشياطين ولا البشر أن يصلوا إليها؛ فإن كل إمكانيات البشر وقدراتهم وحديثهم هو ما دون السماء الأولى، وإلا فالسماوات التي بناها الله تعالى فوق ذلك، لا يصل إليها علم البشر ولم يحيطوا بها علمًا، وكذلك النجوم.

٣- عامة البشر يؤمنون بأن فوقهم سبعَ سماواتٍ، وهذا مألوف لدى البشر، وموروث ثقافي عند معظم الشعوب، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].. في مواضع أخرى مشابهة.

والآية وما شاكلها دلالة على أن فوقنا سبع سماوات، وأنها طِباق -أي: بعضها فوق بعض- وهذا هو المقصود في الآية، وهو الذي عليه جمهور المفسرين[1].

وقال الشيخ الطاهر ابن عاشور: يجوز أن يُراد بالسبع: الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ، وهي: زُحَل والمشتري والمريخ والشمس والزُّهرة

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٦).

وعُطارد والقمر.

وقال: وهذا المحمل هو الأظهر؛ لأن العبرة بها أظفر؛ لأن المخاطَبين لا يرون السماوات السبع، ويرون هذه السيَّارات ويعهدونها دون غيرها من السيَّارات التي اكتشفها علماء الفلك من بعد[1].

والأقرب هو ما ذهب إليه الجمهور أن المقصود سبع سماوات، كما في مواضع أخرى كثيرة في القرآن الكريم، وكون الناس لا يعرفونها بالرؤية؛ فإن الله تعالى يعرِّفهم بها، ويحتج عليهم بالقدر المعروف والمشهور منها.

وأيضًا: فإن القرآن الكريم هو احتجاج على الناس في كل زمان ومكان، وفي العصور السابقة لم يكن عندهم إلمام ومعرفة بهذه المَجرَّات الهائلة، والمدارات الفلكية المُذهِلة، وهذا البعد الذي تدور منه الرؤوس، وكلما تقدَّم العلم، زاد فَهم الناس وتعمَّق لبعض الألفاظ ودلالاتها.

وأمام البشر فرص ضخمة لمزيد من الكشوف الفلكية والاستدلال على وجود العوالم العليا، وها هم علماء الفلك قاموا أخيرًا بطرد الكوكب (بلوتو) من المجموعة الشمسية، ليصبح عدد كواكب المجموعة الشمسية ثمانية.

* ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ:١٣]:

١- ذكر الشمس دليل على أن المقصود السماوات السبع وليس الكواكب؛ لأن الشمس هي أحد النجوم السبعة، فالأقرب أنه بعدما ذكر السماء ذكر بعض ما في السماء، وهي الشمس.

٢- لم يذكر اسم الشمس اكتفاءً بما هو معلوم، وسمَّاها سراجًا؛ لأنها تضيء الكون، فهي مصباح ضخم هائل أكبر من الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، كما يقول الفلكيون، ومع ذلك يراها الرائي بسبب بعدها بهذا الحجم الصغير، وهي

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣).

معلقة في الفضاء لا يمسكها إلا الله بسننه ونواميسه التي تجري في سائر الأفلاك.

٣- الوهَّاج: المتوقِّد، ففي الشمس إنعام آخر بالإنضاج والحرارة، والحرارة هي إحدى النعم العظيمة في الكون، والتي تسهم في حفظ الحياة والإنسان والنبات وتحقيق البيئة المتوازنة.

* ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ [النبأ: ١٤]:

هذا له علاقة بالشمس؛ لأن الشمس هي أحد أسباب تبخُّر ماء البحر؛ ليكون مطرًا وغيثًا.

١- ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾.. ﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾.. ﴿ وَبَنَيْنَا ﴾ صياغات تشعر بتمام القدرة وكمال التصريف الإلهي وراء كل شيء، فهذه الأشياء العادية التي يمرُّ بها الناس وهم عنها معرضون، ينبغي أن ينظروا فيها بروح أكثر حيوية، وأكثر إيمانًا، وأكثر استحضارًا لقدرة الخالق المبدِع الرحيم الكريم سبحانه.

٢- قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾ إشعار بأن كل قطرة تنزل من السماء هي بقَدَر: ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر:٢١]، وهي رحمة وحكمة، وكل شيء بحسبان؛ ولذا يقول العلماء: إن كمية المطر النازل إلى الأرض هو بقدر كفاية الناس، فهو موزون ومخزون، ولكن العبث البشري يؤثِّر على المطر كما يؤثر على البحر وعلى اليابسة وعلى البيئة كلها، وهو جزء من الفساد في الأرض الذي نهى عنه القرآن وشنَّع على مرتكبيه.

٣- اختُلِف في تفسير ﴿ ٱلْمُعْصِرَٰتِ ﴾ على أقوال[1]:

الأول: الرياح.

الثاني: السماء.

الثالث: وهو قول الأكثرين: السحب.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١-١٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٩٣-١٩٦).

٤- في الآية تشبيه بليغ؛ لأن «المعصر» عند العرب هي الجارية قُبَيْل بلوغها، أي: آن لها أن تحيض ولم تحض بعد، فيقال: هذه جارية مُعْصِر، شبَّه السحاب هنا بالجواري، فانظر إلى هذا التشبيه، يخلع على السحاب روح الحياة، وما لها لا تكون حية، ومنها ينزل الغيث الذي يُحيي الله تعالى به الأرض بعد موتها، والسحب ورد وصفها بالجارية في موضع آخر من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات: ٣].

٥- في قوله: ﴿ثَجَّاجًا﴾، وصف المطر بأنه ثجَّاج، أي: يُصَبُّ صبًّا بدفق وقوة، وفيه دليل على الحكمة الإلهية في تصريف الكون، وتحريكه، ولذلك تُسمَّى الأرض بالكوكب الأزرق، لأن أكثر من (٧١٪) من مساحتها ماء.

وهذا الماء يصعد من البحر إلى السماء ثم يعود إلى الأرض، ويقال: إن ما ينزل من المطر كل سنة، يكاد أن يكون متساويًا، ويُروى حديث: «ما عامٌ بأمطرَ من عامٍ»[1]. فهذه حكمة الله سبحانه وتعالى، أنه يُنزِلُ من هذه السماء الماء الثجاج الذي يُصَبُّ بقوة.

٦- قوله: ﴿ثَجَّاجًا﴾ فيه معنى الكرم، والعطاء الذي يُصَبُّ على العباد صبًّا، ومع أنه محسوب، وكل قطرة بإرادة الله، إلا أنه عطاء جزيل، وهذا أقوى ما يكون

---

(١) أخرجه العقيلي (٣/ ٢٢٨)، وابن حبان في «الثقات» (٨/ ٤٦٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٠٨)، وابن مردويه -كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ٤٦٤)- والبيهقي (٣/ ٣٦٣)، والذهبي في «ميزان الاعتدال» (٣/ ١٢٦) من حديث ابن مسعود ﷺ مرفوعًا، وقال الذهبي: «منكر... غريب جدًّا».
وأخرجه الفسوي (٣/ ٣٧٧)، وابن أبي الدنيا في «الرعد» (٧٦)، وابن وضاح في «البدع» (٧٦/ ٢٢٩)، والطبري (١٤/ ٤٠)، (١٧/ ٤٦٩)، والعقيلي (٣/ ٢٢٨)، وابن أبي زمنين في «أصول السنة» (١٠)، والداني في «الفتن» (٢١٣، ٢١٤)، والبيهقي (٣/ ٣٦٣) موقوفًا، ورجَّحه غير واحد. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤١٣١، ٤٤٦٠).

حجة على الناس، فهم يرون الأرض يابسة، ثم إذا نزل عليها المطر: ﴿ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج:٥]، والعرب خاصة يعلمون هذا؛ لأن حياتهم تقوم غالبًا على الرعي والمطر والغيث، فيمتنُّ الله تعالى به عليهم.

* ﴿ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ﴾ [النبأ:١٥-١٦]:

١- قوله تعالى: ﴿ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ ﴾ إشارة إلى الحركة التدريجية في النبات، فالنبات لا يأتي دفعة واحدة، لكن يتكون شيئًا فشيئًا، وقد ذكره الله تعالى في آية أخرى فقال: ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا ﴾ [الأنعام: ٩٩].

٢- ﴿ حَبّٗا ﴾ الحبُّ هو القمح والحنطة والشعير، وغير ذلك مما يأكله الناس، والغالب أن الحبَّ يكون أقواتًا للناس، مع أن الحيوان يستفيد منه أيضًا، لكن الله تعالى بدأ به؛ لأنه يعتبر من الضروريات التي لا غنى للإنسان عنها.

٣- ﴿ وَنَبَاتٗا ﴾ المقصود بالنبات ما يكون أخضر، فيشمل طعام الإنسان من الخضراوات والبقول، ويشمل طعام الحيوان من الأعلاف وغيرها.

٤- ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ﴾ وهذه من الأشياء التحسينية التجميلية للحياة، وتدخل فيها الفواكه، والجنة هي البستان الذي تكثر فيه الأشجار، ولهذا وصفها بقوله: ﴿ أَلۡفَافًا ﴾، أي: ملتفٌّ بعضها فوق بعض.

٥- حينما يرى الإنسان مظاهر الإبداع في خلق الكون يجد عجبًا، ولذلك فإن (الزُّرَّاع) هم أكثر تديُّنًا وصلاحًا واستعدادًا لقبول الحق والفطرة ممن يتعاملون مع الآلة؛ لأن الذي يتعامل مع الأرض حرثًا وزرعًا، ويراقب الصنعة الإلهية بشكل مباشر، يرى آثار هذه الصنعة والإبداع، فيقوى إيمانه ويزيد تواضعه، في حين أن الذي يتعامل مع (الآلة) يتعامل مع شيء من صنع الإنسان؛ ولذلك يغلب عليه النظر إلى إنجاز الإنسان وإبداعه ويذهل أن مبدِع الإنسان هو الله جل وعز، فهو خالق عقله وقدرته وإمكاناته، وهو خالق الأمم والحضارات والأكوان، ومسخِّر الآلة

والمادة وواضع نواميسها وقوانينها.

٦- ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ إشارة إلى ملحظ الجمال، وهو مقصود في صنع الله تعالى، ففي السماء تلحظ القوة والشدة، والبعد والارتفاع، كما تلحظ الجمال في النجوم المتلألئة، وكأنها تتناجى في هذا الليل المظلم، ولو نظر الإنسان إليها عبر المكبِّر، أو في الصور الوثائقية أو العروض الفضائية؛ أو التقنيات ثلاثية الأبعاد؛ لرأى شيئًا يذهل ويدهش.

وهذا كله مما امتنَّ الله به على عباده في هذه الدار، وسخَّره لهم، ورزقهم إياه، وجعل به قوام الحياة إلى أجل مسمَّى، وعلى المرء أن يحسن الانتفاع به، ولا ينشغل به عما هو أهم وأعظم.

* ولذا يتوقف السياق وينتقل إلى موضوع جديد، ليقول: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النبأ: ١٧]:

وعادةً ما يعقد الله تعالى المقارنة بين إحياء الأرض بالنبات، وبين إحياء الإنسان بالبعث، وهذا كثير كما في سورة (ق)، والأنعام، ويونس، والحج.

وفي هذا السياق تجد الشيء ذاته، لما ذكر المطر، وأنه يحيي به الأرض بعد موتها، ويجعل منها جنات ألفافًا؛ ناسب أن يبين أنها جنات عابرة تذبل وتموت، وعلى الإنسان أن يستعد لجنات الآخرة، ولذا ذكَّرهم بالبعث وخروجهم من قبورهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾.

لِمَ سمَّاه: يوم الفصل؟

١- لأنه حقٌّ لا ريب فيه، ومَن كذَّب به فهو في ضلال بعيد، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق:١٣-١٤]، أي: لقولٌ حقٌّ، وليس بالكذب والهزل، فهو اعتقاد يقيني قطعي لا تردد فيه من جهة النقل ولا ريب فيه من جهة العقل.

٢- لأنه يَفْصِل بين الناس فيما كذَّبوا به، فيوم الفصل هو الذي ينهي جدلهم ونزاعهم؛ لأنه يفصل القضية بالحق الذي يرونه بأعينهم، وينتقل هذا من كونه خبرَ وحيٍ إلى كونه شهادةَ عينٍ.

٣- لأن الله تعالى يَفْصِل فيه بين العباد في مظالمهم وحقوقهم، ويقتصُّ لبعضهم من بعض، والعدل المطلق لا يُرى إلا إذا وُصلت فصول الحياة بعضها ببعض، والحياة الدنيا ليست هي الفصل الوحيد للحياة، بل هي الفصل الأول فحسب، وفي الآخرة الفصل الأكبر والأخير والدائم.

ومن الطريف أن الله سماه هنا: «فصلًا» بل هو ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ والألف واللام قد تدخل على الاسم لتدل على الاستيعاب والأهمية الجوهرية، وكأنه لا «فصل» إلا هو.

وحينما تنظر للدنيا متصلة بالآخرة فسوف ترى العدل المطلق للحق سبحانه، فلن يهمل الظالمين، ويغفل عنهم، ويترك المظلومين بلا نصرة، فهناك في عَرَصات[1] القيامة تتكامل فصول العدل الإلهي المطلق، فربما رأيتَ الرجل الظالم الطاغية يموت بعد أن أسرف في طغيانه وظلمه وتعديه وتمتَّع متاعًا واسعًا دون أن يناله شيء من عقوبة الظلم والطغيان في الدنيا، وربما رأيت الرجل مبتلى بالقهر والحرمان وتسلط الظلمة عليه فيموت ولم يقتص ممن ظلمه، فهل هذا مما يناقض العدلِ الإلهي؟!

كلا! لأن فصول القصة لم تنته عند حدود الدنيا، فثمة جنة ونار وحساب وعقاب، فيأتي يوم الفصل لتُسْتَكْمَل فيه الأمور، ويُقتصَّ فيه لبعض الناس من بعض، وتكتمل الحكمة الربانية التي لا يراها الناس أحيانًا في هذه الدنيا.

وربما سُمِّي فصلًا؛ لأن الأمور تحسم فيه، وثم نهايتان وطريقان، هما الجنة والنار، أما في الدنيا فثَمَّ آلاف الطرق والمذاهب والأفكار والنظريات والأعمال والخيارات.

---

(١) مفردها: عَرْصَة، وهي كل موضع واسع لا بناء فيه.

وقوله: ﴿ مِيقَٰتًا ﴾ لها عدة معانٍ:

١- أن له وقتًا محدودًا، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود:١٠٤]، وقد اختصَّ الله بعلمه، فلم يبلِّغ به مَلَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسَلًا، فهذا من العلم الذي لا يحيط به إلا الله، ومَن ادَّعى أنه يعلم ميقات يوم الفصل فقد كذب.

وكل الحكايات والأقاويل التي تنشر في الصحف والأفلام والمواقع، وكل الرؤى والتوقعات والحسابات بقيام الساعة ونهاية العالم باطلة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه: ١٥]، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

٢- أنه اليوم الموعود الذي واعد الله فيه عباده بالفصل بينهم ومحاكمتهم.

وإذا كان يوم الفصل ميقاتًا، فهذا يعني أنه لا جدوى من استعجاله؛ لأنه مؤقَّت بوقت معلوم عند رب العالمين، لا يتقدم ولا يتأخر لرغبة أحد: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل:١]، ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ [الشورى:١٨].

ومن لوازم كونه ميقاتًا، أنه حق فلا تكذِّبوه؛ لأن الله تعالى أخبر به، وبيَّن أن له وقتًا وضروبًا عنده سبحانه.

وفيه تصبير للمكلومين والمعذَّبين في الدنيا والمقهورين المستبطئين؛ لأن من عادة الإنسان إذا علم أن أمامه موعدًا مضروبًا محدَّدًا، كان أقرب إلى الاطمئنان والسكينة.

ثم ذكر الله تعالى بعض وقائع هذا اليوم، فقال:

* ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ [النبأ: ١٨]:

الإنسان هو المقصود الأول من خلق الكون والحياة والبعث؛ ولذا بدأ السياق في الحديث عنه مباشرة.

والحساب والجزاء والسؤال هو لك شخصيًّا، فلا تحسب للآخرين حسابًا، ففي يوم القيامة يهتمُّ كلٌّ بنفسه، حتى الرسل والأنبياء يقول الواحد منهم: «نفسي.. نفسي». وينسى الإنسان أهله وقرابته، ويفر من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

والنفخ في الصور هو للحياة، و«الصور» هو بوق أو قرن يُنْفَخ فيه[1]، لكن هيئته وشكله وطوله وعرضه وصفته مما لم نُحِطْ بعلمه، فنحن نؤمن بأن ثَمَّ صورًا، وأنه يُنفخ فيه، وتشخيص صفة الصور أو طريقة النفخ، هي من الغيب الذي لم نحط به علمًا ولا طائل من البحث وراءها، ونتيجة لذلك تأتي الصيحة أو الرادفة أو الصاخَّة أو الطامَّة التي يُبْعَث الناس بها من قبورهم، والإنسان عندما يتخيَّل نعيم الجنة أو عذاب النار، أو ما يجري يوم القيامة، تمرُّ بذهنه خواطر وصور مما يعرف، لكن عليه أن يدفعها، ويدرك أن ما خطر بباله شيء، وما عند الله شيء آخر مختلف، لا سبيل إلى إدراكه، فلا تحاول، ولا تضيِّع جهدك ووقتك وإمكانياتك، بل اصرفها في النافع.. في العلم.. في الإصلاح.. في العمل.. في الخير.. في الدعوة.. في المصالح الدينية أو الدنيوية، أما الرجم بالغيب والظنون والتخيلات في أمور أخروية، فهذا لا جدوى من ورائه.

ولاحظ تسارع السياق: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾، حيث عبَّر بالحرف «ف»، فبمجرد ما يُنفخ فيه يحشر الناس إلى ربهم أفواجًا.

وقوله: ﴿ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾، أي: جماعات، بعضهم مع بعض، كل أمة تأتي مع نبيِّها، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء:٧١]، فكل أمة تُدْعَى إلى كتابها، وتُدْعَى مع نبيِّها، المؤمنون مع المؤمنين، والكافرون مع الكافرين؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير:٧]، أي: قُرِنت مع أشباهها، فأهل الإيمان مراتب، وأهل الكفر والنفاق مراتب، ويوم القيامة طويل يقع فيه اختلاط الناس

(١) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٣٧٥)، و«النهاية» (٣/ ١٢٢)، و«تاج العروس» (١/ ٣٠٨١).

وتمايزهم شيئًا فشيئًا، حسبما تدل عليه النصوص المختلفة الواردة في السياق.

* ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴾ [النبأ:١٩]:

١- هذا مما يقع بعد انبعاث الناس ومجيئهم أفواجًا: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾، أي: شُقِّقت ومُزِّقت، ﴿ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴾ تنزل منها الملائكة إلى الأرض للمهمَّات التي انتُدِبوا إليها.

٢- السَّماء وإن كان من مقاصدها أنها سقف للأرض، إلا أنها ليست مقصورة على هذه المنفعة، فهي عالم آخر وبناء مستقل، ولهذا عبَّر بالبناء، وكما عبَّر عنها في آية أخرى بكونها: ﴿ سَقۡفَۢا مَّحۡفُوظٗاۖ ﴾ [الأنبياء:٣٢]، ولم يقل: (سقفًا حافظًا)، وإنما ﴿ مَّحۡفُوظٗاۖ ﴾، أي: عما دونه، فقصارى ما يستطيعه الإنسان هو أن يلاحظ هذه السماء على هيئة السقف، وأما ما وراءها فهو محفوظ لا يستطيع البشر أن يلاحظوه إلا بإذن ربهم.

فالسماء في ذلك اليوم على شدتها وقوتها ومتانتها تشقق، وتكون أبوابًا لنزول الملائكة.

* ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴾ [النبأ:٢٠]. وقال في آية أخرى: ﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴾ [التكوير:٣]:

وهذه إحدى أحوال الجبال؛ أن يأذن الله لها أن تسير بمفردها، وتسير سيرًا سريعًا، حتى إنها تمرُّ مرَّ السحاب، قال سبحانه: ﴿ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴾، وقد ورد عن الجبال سبع صفات في القرآن الكريم، منها هذه الصفة.

ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾ [النمل:٨٨]، وتكون كالعهن، وكالهباء، وتزول كما في قوله سبحانه: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴾ [طه:١٠٧].

وكأن هذا يقع بالتدريج خلال هذه السنين المتطاولة التي يشملها اسم «يوم الفصل»، وهذا أحسن من النظر إلى تلك الأحوال باعتبارها مترادفة، فالقول باستقلال كل لفظ بمعنى خاص أولى من حمل بعضها على بعض، وأمكن في الإفادة.

* ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ:٢١]:

١- حين تقرأ هذه الآية المؤكَّدة بـ ﴿إِنَّ﴾ تشعر أن ما سبقها من علامات وتغيرات لم يكن إلا تمهيدًا لهذه الحقيقة المرعبة المخيفة.

وإذا كان تلك الآيات الممهِّدة تثير الفزع من النفخ في الصور، ومجيء الأمم كلها جماعات، وتشقُّق السماء، وتسيير الأرض، فكيف حين تُرى النار وهي تترصَّد وتتربَّص بمَن وُعدت بهم.

٢- والمرصاد هو الذي يقف في الطريق يترصَّد[1]، ولهذا قال في سورة الفجر: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤]، فلو أن إنسانًا يمشي في طريق وهو يعرف أن أحدًا يترصَّد له فيه ليوقع به، كيف يكون حاله؟ سوف يحذر ويتوقَّى كلَّ ما يريب، وهذا السياق إنما يقال؛ لأن المقام مقام وعيد للمكذِّبين والمتسائلين باستخفاف عن النبأ العظيم، وإلا فالأصل في صفات الرب تعالى الرحمة واللطف والبر والجود والكرم والعفو والصفح، ولا يقع في أسمائه الحسنى إلا كل جميل، كما هو مقرر معلوم مبسوط في بابه.

٣- وكونها ﴿مِرْصَادًا﴾ يدل على أن الناس كلهم سوف يمرُّون عليها: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، وذلك أن الصراط منصوب على متن جهنم، فالناس يمرُّون عليه جميعُهم؛ المؤمنون والأنبياء والمرسلون، وسائر البشر، لكن منهم مَن يمرُّ كلمح البصر، ومنهم دون ذلك، ومنهم مَن يمشي ويعثر، ومنهم مَن يسقط ويهوي[2].

---

(١) ينظر: «فتح الباري» (٨/ ٧٠٢).

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٧٤٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وبدأ بذكر جهنم؛ لأنها في الطريق إلى الجنة بسبب أن السياق تهديد للمكذِّبين.

* ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ:٢٢]:

١- تخصيص بعد عموم، وهذا اللفظ يُطلَق على الكفار، الذين كفروا بالله، وجحدوا آياته، وعصوا رسله، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، واسترسلوا وراء المغريات والشهوات واللذَّات، فيتوعَّدهم الله سبحانه وتعالى بأن جهنم أُعدت لهم.

٢- التعبير بـ «الطغيان» إشارة إلى سبب التعذيب، وهو الاستكبار والتعاظم الذي يحول دون قبول الحق، ويكون سببًا في العدوان على الخلق وازدرائهم، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «**لا يدخل الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبر**». قال رجل: إن الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال: «**إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكِبرُ بَطَر الحق وغَمْطُ الناس**»(١). وفي موضع آخر قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٦٠]. وناسب مقابلة الكبر بالإهانة والتعذيب.

٣- والمآب هو المرجع، فمهما طال الزمن أو قصر، فمرجعهم ومصيرهم إليها، كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٨]، والعادة أن الإنسان ربما يتعب في سفر، ثم يؤوب إلى بيته وأسرته فيجد الراحة والأنس، ويزول عنه العناء والتعب، فكيف إذا كان مردُّ الإنسان هو العذاب، ولعل هذا من معاني قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٨-٩].

٤- المسلمون الذين يعصون الله تعالى، ما شأنهم؟ يغفر الله تعالى لمَن يشاء منهم، ويعذب مَن يشاء، ورحمته سبحانه سبقت غضبه، ولكننا نعلم بمقتضى النصوص الشرعية المتوافرة أن من المسلمين مَن يُعذَّب، ثم يخرج من النار برحمة أرحم الراحمين، أو بشفاعة المرسلين، أو بغير ذلك من الأسباب التي أذن بها رب العالمين.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

* ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴾ [النبأ:٢٣]:

﴿ لَّٰبِثِينَ ﴾: أي: ماكثين، والأحقاب جمع حِقْب، والحقب أو الحقبة، قال بعضهم: سبعون سنة. وقال آخرون: سبعون ألف سنة، وفي الآية لم يحدِّد مدَّتها، ومن هنا قال جمهور المفسرين: إن المقصود بالأحقاب: الدهور التي لا نهاية لها[١].

وقال آخرون: إن السياق دليل على أنهم يمكثون فيها مددًا طويلة، ولكن لها أمد تنتهي إليه، **ولذلك اختلف أهل السنة: أتفنى النار أم لا؟**

أما الجنة: فلا خلاف في بقائها أبد الآبدين، وهذا محل إجماع أهل الإسلام[٢].

وأما النار: فقد ذكر شارح «الطحاوية» عند قول الإمام الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان». قولين لأهل السنة:

الأول: أن النار باقية، وأصحابها من الكفار والمشركين باقون فيها أبدًا، وأما الموحِّدون فيخرجون منها، وهذا مذهب الأكثرين.

القول الثاني: أنه يخرج منها أهل الإيمان، ثم تبقى فترة ثم يأذن الله تعالى بزوالها وفنائها.

واستدلوا على ذلك بالآية الكريمة المذكورة آنفًا؛ لأن التحديد بالأحقاب دليل على التوقيت، كما استدلوا بقوله تعالى في سورة هود: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود:١٠٧].

وقالوا: إن الخلود من معانيه: المكث الطويل، وهو معروف في اللغة، والمعنى: خالدين فيها ما دامت موجودة.

وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض كتبه يميل إلى هذا القول، وفي «شرح «العقيدة

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٠٠).

(٢) ينظر: «مراتب الإجماع» (ص١٧٣).

الطحاوية» ذِكرُ هذا القول عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو مروي عن ابن مسعود رضي الله عنه، والحسن البصري، وجماعة من السلف، ويُنسب إلى ابن تيمية، وذكر الشيخ رشيد رضا هذا القول، وأطال فيه النفس مقرِّرًا مؤيِّدًا[1].

فهو قول معتبر ضمن أقوال أهل السنة، وليس قولًا منكرًا يُوصم صاحبه بالتضليل أو التكفير أو التبديع أو يُدعى إلى الملاعنة أو المباهلة، كما يقع من بعضهم بسبب التعصب والاستغراب.

* ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ:٢٤]:

١ - «البرد» هو البرودة، أي: ضمن الحرارة، وذلك أنهم في حر شديد ونار، فهم يتمنَّون البرودة فلا يذوقونها، لأن الإنسان إذا شعر بشدة الحرارة تمنَّى البرودة، وإذا شعر بشدة البرودة تمنَّى الحرارة واللهب، وفي الحديث مرفوعًا عن خَوْلة بنت قيس رضي الله عنها: «ابنُ آدم إن أصابه البردُ قال: حَسِّ. وإن أصابه الحرُّ قال: حَسِّ»[2].

ومن الطريف أن أعرابيًّا اشتد عليه البرد حتى كاد يهلك ثم وجد نارًا يستدفئ بها فقال: اللهم اكتبها لي ولوالدي!

ومن معاني البرد: النوم:

قال الشاعر:

فإن شئتِ حرَّمتُ النساءَ سواكمُ ... وإن شئتِ لم أَطْعَمْ نُقاخًا ولا بردا[3]

---

(١) ينظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (١/ ٢٨٥) فما بعدها، و«حادي الأرواح» (ص ٢٤٨)، و«الرد على من قال بفناء الجنة والنار» لابن تيمية (ص ٧٤)، و«رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار» للصنعاني، و«تفسير المنار» (٨/ ٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٣١٦)، وابن حبان (٢٨٩٢)، والطبراني (٢٤/ ٢٣١) (٥٨٩). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٨).

(٣) ينظر: «الحيوان» (٥/ ١٦)، و«الفاخر» (ص١٧)، و«الصحاح» (١/ ٤٥٦)، و«لسان العرب» (٢/ ٣٢٠) منسوبًا إلى عبدالله بن عمرو بن عثمان العَرْجي.

والنُّقَاخ هو الماء.

والبرد، قيل: هو النوم، وهو قول مجاهد وبعض السلف، وهو معروف في اللغة[1]؛ وذلك لأن الإنسان في النوم أبرد منه في اليقظة، وكذا إذا مات برد جسمه.

فلا برودة تخفِّف عنهم من لهب النار، ولا يذوقون الماء البارد، ولا يذوقون حتى النوم الذي يخفف عنهم، أو ينسيهم، أو يعطي أجسادهم بعض البرد.

٢- وقوله: ﴿وَلَا شَرَابًا﴾، نفى البرد، ثم نفى الشراب؛ لأن عادة المرء أن يحب الشراب باردًا، فإذا نفى البرد لم يكن إلى البرودة إليهم من سبيل بوجه من الوجوه، ثم عقب بنفي الشراب كله بارده وغير بارده، إلا ما استثناه في الآية بعدها.

* ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ:٢٥]:

«الحميم» هو: الماء الحار، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، فإذا غلي الماء سُمِّي حميمًا.

ومنه: الحمَّام؛ لأنهم كانوا يتطهَّرون ويتنظَّفون بالماء الحارِّ، فسمَّاه هنا حميمًا.

ومنه: الحمَّى أيضًا، فهم يشربون هذا الماء الحميم الحارَّ المغلي، الذي يقطِّع أمعاءهم ويمزِّق أجوافهم[2].

والغسَّاق: قيل: هو الشراب النتن.

وقيل: البارد شديد البرودة، الذي يعذِّبهم ببرودته[3].

ولا مانع من اجتماع الأمرين، فيكون الغسَّاق شرابًا باردًا منتنًا يشربونه عقوبة

(١) ينظر: «القاموس المحيط» (١/ ٣٤١)، و«مختار الصحاح» (ص ٧٣).

(٢) ينظر: «الصحاح» (٥/ ١٨٣)، و«تاج العروس» (٣٢/ ١١).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٥١)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٦٤١)، و«معجم ديوان الأدب» (١/ ٣٢٩)، و«تاج العروس» (غ س ق) (٢٦/ ٢٥٢).

على ما كانوا يتلذَّذون به في الدنيا مما حرَّم الله تعالى من ألوان المطاعم والمشارب والشهوات.

* ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ: ٢٦]:

فهو جزاء عادل، موافق لنوع العمل، وليس فيه زيادة في العقوبة بل هو مكافئ للإجرام، وفي جزاء المؤمنين قال: ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ [النبأ:٣٦]؛ أي: أنه فضل من الله تبارك وتعالى، وليس مقابلًا لأعمالهم، بل هو فوقها.

ولهذا لا يمكن أن يدخل أحد النار وهو يقول: أنا مظلوم. بخلاف الدنيا، ربما كثير من الناس لا يحسُّ بخطئه، أو لا يريد أن يعترف، أو يُظلم وتضاعف عليه العقوبة، ربما يُعاقَب ويُسْجَن ويُعذَّب ويُقتَل بحق، وهو يصيح: مظلوم! مظلوم! حتى قال الشاعر:

لن يدخلَ السجنَ إنسانٌ فتسألهُ: ما بالُ سجنِك؟ إلا قال: مظلومُ

أما في الآخرة، فهذا مُنْتَفٍ، فلا يوجد أحد يُعاقَب وهو يقول: لا أستحق هذا، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠-١١].

وهذا من كمال العدل الإلهي، حتى إن الجوارح تشهد على الإنسان وليس الملائكة فحسب، ولا الديوان المسطور الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

* ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ [النبأ:٢٧]:

هذا بيان لكمال الحجة عليهم، وعظم الذنب الذي اقترفوه، وأنه لا ذنب أعظم من الحَوْبِ الذي وقعوا فيه، وهو جحود الخالق والكفر به وتكذيب أنبيائه ورسله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ [النبأ:٢٧-٢٨]، وهم ﴿ كَانُوا۟ ﴾ في الدنيا لا ينتظرون البعث وما بعده، وجمع بين الفعل الماضي والمضارع:

﴿كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لم يكونوا يرجون حسابًا، وما من حجة أقيمت عليهم في إثبات الجزاء والنشور إلا قابلوها بالاستكبار والرفض، ولذا أعرضوا عنه ولم يضعوه في اعتبارهم ولم يدرجوه في حسابهم، وكانت غايتهم الحياة الدنيا، وبهذا اختل ميزانهم.

وقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ عبَّر بـ«الرجاء»، وهو يُطلَق على ما يحب الإنسان، أي: أنهم لم يكونوا يرجون الجنة، والرضوان، ولهذا لم يكونوا يفعلون الطاعات؛ لأن الذي يرجو لا بد وأن يفعل الطاعة، وكأن في ذلك إشارة إلى أن أصل كفرهم ترك الطاعة والتوحيد والإيمان، وهو أعظم من الوقوع في المعصية.

* ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ:٢٨]:

انتقل من التعبير بالمضارع إلى التعبير بالماضي، فقال: ﴿وَكَذَّبُوا﴾ للإشارة إلى أن تكذيبهم كان حاسمًا جازمًا لا تراجع فيه ولا تردد، وكان سريعًا لم يسبقه بحث ولا تأمل ولا تفكير.

و«الآيات»: جمع آية، وهي نوعان:

١- الآيات الكونية الدالة على الله، وهذا من جنس قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:٦-١١]، وكثير من المشركين زمن النبي ﷺ كانوا يقرُّون بتوحيد الربوبية بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، فتكذيبهم بها عدم تحققها في نفوسهم وعدم الالتزام بمقتضى ما يقولون بألسنتهم من الإيمان المجرد بالإله الخالق.

٢- الآيات الشرعية، فكذبوا بوحي الله، ومن ذلك: التكذيب بالقرآن، والعربيُّ إذا قرأ القرآن عَرَفَ بعربيته إعجازَ القرآن الكريم في بلاغته وفصاحته وسحر بيانه.

فهؤلاء كذَّبوا بالآيات كلها، عقليها ونقليها، مسطورها ومشهودها، ولذا استوعب تكذيبهم الآيات كلها. ولهذا قال: ﴿كِذَّابًا﴾، والكِذاب معناه: تكذيبًا، فهو مصدر، لأن المعنى: كذبوا بآيات الله، ولكنه صيغة (كذابا) أبلغ من (تكذيبًا)، مرة بعد أخرى، وكلما وُجِد في قلوبهم شيء من الميل أو التصديق قاوموه ودافعوه.

وهذا التكذيب بآيات الله جعلهم لا يؤمنون بيوم الحساب، ولا يعملون له، ولا يرتدعون عن المعاصي.

* ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ:٢٩]:

﴿وَكُلَّ﴾ مفعول به منصوب على تقدير: (وأحصينا كل شيء)، وفي الآية الأخرى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس:١٢]، أي: في كتاب حافظ.

و﴿وَكُلَّ﴾: من ألفاظ العموم؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٣]، كل صغير من الأفعال والأقوال والخواطر التي في القلب والنيات والمقاصد مُحصًى عند الله ومسطور.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

ويدل لفظ: «كل» على استيعاب ما عمل هؤلاء الناس وما لم يعملوا، فهو مكتوب.

والمقصود بـ «ما لم يعملوا»؛ أي: كل ما تركوا مما هو واجب عليهم أن يعملوه، وربما دخل فيه ما هموا به ثم أعرضوا عنه، أو عجزوا عن فعله، فيكتب لهم ما تركوه لله، ويكتب عليهم نية ما تركوه عجزًا.

والكتابة هنا هي الحفظ والضبط والتسجيل الدقيق، وهي وثيقة يُبنى عليها

الحساب والثواب والعقاب، كما يبنى عليها الترك لما لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب.

فقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ يشمل المفعول والمتروك من المعاصي والطاعات.

وهو عموم لا يدع مجالًا للتوقع بأن ثَمَّةَ شيئًا لم يشمله هذا العموم.

واختلف العلماء فيما يكتبه الملك؟

فقال الحسن وقتادة ومجاهد: يكتب كل شيء. وقال ابن عباس -في إحدى الروايتين عنه- وعكرمة: يكتب ما فيه ثواب وعقاب.

وظاهر الآية الأول، ويؤيِّده قوله تعالى في سورة (ق): ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

وقيل: يكتب عليه كل ما يتكلم به، فإذا كان آخر النهار مُحي عنه ما كان مباحًا، مما لا يتعلق به أجر ولا وزر، والله أعلم[1].

وقوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ الإحصاء يدل على الضبط الدقيق، فهو مُحْصًى معروف؛ لأن الله تعالى عليم بكل شيء، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

والضمير -النون- في قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ يعود إلى الله سبحانه وتعالى، فهو يعلمه، وأيضًا بواسطة ملائكته الكتبة الحافظين، الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وغالب ما تأتي النون فيما يكون للملائكة تكليف فيه، كالموت والعلم والمعية والنصر.

ثم قال: ﴿كِتَابًا﴾، أي: ليس فقط علمًا، وإنما هو مكتوب أيضًا؛ لأن عند الله

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٨)، و«تفسير ابن رجب» (٢/ ٣٠٢).

تعالى كتابًا لكل إنسان يخصه، ويُزاد فيه يومًا بعد يوم، ويُكْتَب فيه الخير والشر، وهذا نطق به القرآن الكريم، كما قال سبحانه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء:١٣]، وهو الكتاب الذي يقول الله تعالى عنه: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف: ٤٩]، يرون الكتاب من بعيد، قبل أن يأخذوه، فهم منه مشفقون.

فهنا قال: ﴿ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴾ أي: مكتوبًا أو كتابةً، ولا يمنع أن يكون ذلك مدونًا بأعلى صيغ التوثيق التي لا تدع لقائل مقالة، ولهذا قال في آخر السورة: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [النبأ:٤٠].

وإذا كان البشر بإمكاناتهم القليلة استطاعوا أن يوثِّقوا ويضبطوا حركات الإنسان وأعماله من خلال وسائل التقنية والكاميرات الدقيقة المبثوثة في كل مكان، فتُصوِّر الحركات والسكنات وتُسجِّل الأصوات وهي في غاية الخفاء والضآلة، فكيف بقدرة الخالق العظيم جل وتعالى التي لا تُعَدُّ ولا تُحَدُّ؟!

فثَمَّ شريط شاهد على ما يعمله الإنسان يعرض عليه يوم القيامة.

* ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ:٣٠]:

أي: ذوقوا بدايات العذاب، فما تجدونه ما هو إلا عينة لما هو أشد؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة:٥٦]؛ أي: البداية التي تُقدَّم للضيف.

وهذا دليل على أن العذاب يزيد، أي: سوف نزيدكم عذابًا؛ لأن العذاب الجديد يضاف إلى العذاب الأول، فالعذاب الأول نال من الإنسان، من جلده ومن نفسه، فإذا جاء العذاب الجديد كان مضافًا إلى الأول، فهو عذاب بعد عذاب، إضافة إلى أنه قد يكون من معاني الآية: أن العذاب يزيد، فيكون العذاب الثاني أشد من العذاب الأول.

وقوله: ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ أقوى مما لو قال: (فسوف نزيدكم عذابًا)؛ لأن فيه نفيًا وإثباتًا، فهو نفى أن يزيدهم شيئًا آخر؛ أي: لن نزيدكم رحمة وعفوًا ومغفرة

ونعيمًا، وإنما سوف نزيدكم عذابًا فحسب.

وبينما القوم يتألَّمون بالمعاناة والعذاب الذي هو جزاء لأعمالهم، تنتقل السورة إلى الفريق الآخر وما له من النعيم:

* ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ [النبأ:٣١]:

١- بدأ بـ ﴿ إِنَّ ﴾ المؤكِّدة، إشارة إلى عظمة هذه الحقيقة، والمتَّقِي هو مَن اتقى الكفر بالإيمان، فلكل مؤمن قدر من التقوى يزيد بقدر ما عنده من الإيمان والوازع؛ ولهذا يقول سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢]، فكل مؤمن له حظٌّ من هداية القرآن؛ لأن أول مراتب التقوى هي الإسلام، وهناك مراتب للتقوى أعلى تصل إلى مرتبة الإحسان والكمال.

وقد سُئل أحد السلف عن التقوى؟ فقال: «هل أخذتَ طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعتَ؟ قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه أو جاوزتُه أو قصُرتُ عنه. قال: ذاك التقوى»[(١)].

فالمتَّقِي كالذي يمشي في حقل ألغام، يحذر أن يضع قدمه إلا في مكان آمن، فهكذا المتقي لا يضع رجله أو يده أو عمله إلا حيث يعلم أنه لا حرج عليه، والتقوى لا تعني العصمة، وكان ابن المعتز يقول:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها ... وكبيرَها ذاك التُّقى

واصنع كماشٍ فوق أر ... ضِ الشوكِ يحذرُ ما يرى

لا تحقرنَ صغيرةً ... إن الجبالَ من الحَصَى[(٢)]

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٤٢)، و«أدب الدنيا والدين» (ص ٩٨)، و«الزهد الكبير» للبيهقي (٩٦٣)، و«تفسير البغوي» (١/ ٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٦١)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٤)، و«الدر المنثور» (١/ ١٣١).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٤٢)، و«شعب الإيمان» (٦٩١٩)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٤).

قال سبحانه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، والمتقون هم مَن ذُكِر بعد هذه الآية إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فالمتقي عنده أوبة كلما وقعت منه زلة، وهذا لا ينافي التقوى، والمؤمن يخطئ ويتوب ويستغفر.

٢- قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى أنهم علموا أن كل شيء سيُحصَى عليهم، فتركوا ما لا يُرضي الله قَدْرَ استطاعتهم، فهم مؤمنون بقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾، وكانوا يرجون الحساب ويخافون العذاب، وبهذا تميزوا عن الطائفة الأولى.

٣- ﴿مَفَازًا﴾: المفاز: السلامة، وكفى بها فوزًا؛ لأنه لـمَّا ذكر وعيد المشركين قال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ولذلك كان الأنبياء في ذلك الموقف يطلبون السلامة، ويقولون: «اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»(١).

* ولكن الله تعالى بفضله وكرمه وعَدَهم بما هو أعظم من ذلك وخير: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ:٣٢-٣٤]:

و«الحدائق»، وهي الأشجار العظيمة، والجنة سُمِّيت بذلك؛ لما فيها من الأشجار الملتفَّة، التي تجن وتغطي ما دونها، وقوله: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾، باللغة التي نعرف؛ لأن هذا قصارى ما يمكن أن يصل إليه الإدراك، والإنسان عندما يقال له: ﴿حَدَآئِقَ﴾. يتبادر إلى ذهنه ما يراه في الدنيا، وعندما يُذْكَر له الأعناب يتبادر إلى ذهنه ألوان العنب وأشكاله وطعومه المختلفة التي يعرفها ويتذوَّقها.

و«ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء»، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(٢)، وقال

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (٣، ٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

سبحانه: ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [البقرة:٢٥]، وقال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الحديث الصحيح أخبر ﷺ أن الجنة: «فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلبِ بَشَرٍ»[١].

﴿ وَأَعْنَٰبًا ﴾ لم يقل: (وعنبًا)، كما في قوله: ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ [عبس: ٢٨]، بل قال: ﴿ وَأَعْنَٰبًا ﴾، إشارة إلى كثرتها وتنوُّعها، فهي ضروب وألوان وأشكال، وذلك لأن آية «عبس» هي امتنان على أهل الدنيا، فذكر العنب مفردًا، أما في الجنة، فجاء لفظ «الأعناب» مجموعًا؛ إشارة إلى اتساع أنواعه بقدر عظيم عما هو في الدار الدنيا.

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾: «الكواعب» جمع: كاعب، وهي الفتاة التي تفلَّك أو تكعَّب ثديها، أصبح مثل الكعب، أي: مثل كعب الإنسان في استدارته وفي شبابه، وفي نضجه وتصلُّبه، فالله تعالى ذكر المرأة كأجمل وأكمل ما تكون في مرحلة بلوغها وفتوَّتها وعنفوان شبابها.

وأعمار أهل الجنة هي ثلاث وثلاثون سنة[٢]، أي: في مرحلة اكتمال الشباب.

و«الأتراب» جمع تِرْب، أي: المتشابهات في السن، فسِنُّهن واحد[٣].

فعندما تكون نساء الجنة كواعب جميلات، وأترابًا في سِنٍّ واحد، فهذا يعني أن الحب والمودة ستكون لهن في درجة واحدة، فلا توجد واحدة منهن في نفسها أن غيرها تُحَبُّ أكثر منها أو أنها أجمل منها، بل كلهن في جمال واحد، وسن واحد، والميل لهن واحد، وأيضًا هنَّ كواعب أتراب فيما بينهن، وعادة النساء عندما يكون سِنُّهن واحِدًا أن يكون بينهن شيء من الأُنْس، وهذا متعة للنساء المتقيات بكونهن

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٤٤، ٤٧٨٠)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٤، ٢٨٢٥).

(٢) كما في حديث أبي هريرة ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما: أخرجه أحمد (٧٩٣٣، ٨٥٢٤)، والترمذي (٢٥٤٥).

(٣) ينظر: «المزهر» (١/ ٣٤٢)، و«لسان العرب» (١/ ٢٢٧)، و«تاج العروس» (٢/ ٦٨).

الكواعب الموصوفات بالجمال والحسن والنعيم، لأنه قوله: ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يشمل الذكور والإناث.

وقد يكون قوله: ﴿ أَتْرَابًا ﴾، أي: مع أزواجهن، وهذا مُلاحَظ أن سِنَّ الرجل وسِنَّ المرأة واحد في الجنة، وهذا أدعى لكمال المتعة وحسن المعاشرة في الجنة.

وقد يُستغرَب: لماذا يذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن مثل هذه المتعة؟

وهذا من المغالطة؛ لأن من أعظم ما يُفتَن به الإنسان في الدنيا التعلق بالمرأة، وحتى مَن يستشكل هذا يعرف حقيقة نفسه وكيف يعاني من ضغط الميل النفسي والجسدي، إن كان تقيًّا يعاني من مدافعة الشهوة، وإن كان فاجرًا فهو يعاني من ملاحقة صنوف الإشباع وتبعاته المرهقة، وهو مما جبل الله عليه البشر، وهو من أعظم ألوان النعيم والمتعة في الدنيا والآخرة، وقد جمع الله تعالى لهم أنواع النعيم بالمجالس والبيوت وبالمطاعم والمشارب وبالمناكح والمَلذَّات.

فإن قيل: فماذا للنساء؟

فأقول: لهن أن الله تعالى قال فيهن: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧].

وهن شريكات في سائر النعيم المفصَّل، بما في ذلك رؤية الله تعالى وسماع كلامه، وسائر المتع والمباهج المعنوية والحسية المسوقة في الكتاب العزيز.

وقد يقول قائل: لماذا للرجل أكثر من امرأة في الجنة؟

فأقول: هذا من حكمة الله، أن المرأة عادة أحادية العاطفة، إذا أحبَّت شخصًا فلا ترى في الدنيا إلا هذا الإنسان، ولهذا لو تزوَّج عليها زوجها وجدت في قلبها ألمًا عظيمًا وإن صبرت، ولا تجد في نفسها ما يجده الرجل من التطلع وإمكانية وجود الحب لأكثر من امرأة، فإن مسارات العاطفة عنده قابلة للتعدد.

وكثير من الرجال يحب امرأته ويقصر نفسه عليها، وهذا حسن، ولعله أدعى للألفة، وأبعد عن المشكلات وأجدر أن ينشأ الأولاد في جو من الأنس والألفة والصفاء، لكن المقصود أن طبيعة الرجل العاطفية تختلف عن المرأة؛ ولهذا وصفهن الله بقوله: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن:٥٦].

فالمرأة قاصرة الطرف على زوجها لا ترى إلا حسنه وجماله، ولا تستمتع إلا به ومعه، ولا تطمح في نظرها إلى سواه.

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾: وهذا نعيم آخر مع السمر، والمجالس الجميلة، والخضرة، والمآكل والمشارب، والزوجات الحسان الجميلات، والكأس لا يُذكَر في القرآن إلا ويُراد به الخمر، وهذا معروف في لغة العرب، فإذا قال: «شربت كأسًا» ولم يميز، فهو يعني الخمر.

وقوله: ﴿ دِهَاقًا ﴾ لها معانٍ، منها:

١- «الملأى المتتابعة» عند أكثر المفسرين، وملء الكأس يُعَدُّ من كرم الساقي.

٢- «الصافية»، كما يقول الصاحب بن عَبَّاد:

رقَّ الزجاجُ ورَقَّتِ الخمرُ ... فتشابها فتشاكلَ الأمرُ

فكأنها خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنها قدحٌ ولا خمرُ[1]

وكما يقول محمد إقبال:

كمثلِ الكأسِ تُبْصِرُها دِهاقًا ... وليس لأجلِها صُنِعَ الشرابُ

فهنا اجتمع صفاء الخمر وصفاء الكأس، فهذا من أجود وأحسن ما يكون، وعادة ما يمدح العرب الخمر المعتقة القديمة، التي أُتقِن صنعها، فالله تعالى يذكر للمؤمنين هذه الخمر التي هي: ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [الصافات:٤٦]، فيجتمع لهم

(١) ينظر: «خاص الخاص» (ص ١٦١)، و«يتيمة الدهر» (٣/ ٣٠٤)، و«وفيات الأعيان» (١/ ٢٣٠).

كل ألوان اللذة في الجنة[1].

* وجرت العادة أن مثل هذه المجالس تشتمل على صنوفٍ من النعيم واللذَّة والحدائق والبساتين، والنساء الجميلات، والمآكل والمشارب والمطاعم، والأصوات الجميلة بالغناء وغيره، ولما كانت هذه المجالس لا تخلو غالبًا من غوائل السكر بالخمر؛ من التشاتم والسباب والبطش والاعتداء، عقَّب الله على هذه الآية ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ بما يميِّز مجالس الخمر في الجنان عن مجالسها في الدنيا، فقال سبحانه: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾ [النبأ:٣٥]:

فعندما يشربون لا تذهب عقولهم، كأهل الدنيا، بل يتمتعون بالخمر دون أن يفقدوا لذَّاتهم وكمالاتهم النفسية: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات:٤٧]، فلا تغتال عقولَهم، ولا تذهب بألبابهم، فيدوم لهم نعيم المعرفة والرضا بالله والفرح برحمته والرجاء في مزيد فضله، مع نعيم الشرب والسماع ولذة العين والنظر.

وقوله: ﴿ لَغْوًا ﴾: «اللغو»: هو الكلام الزائد الذي لا فائدة فيه: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص:٥٥].

﴿ وَلَا كِذَّابًا ﴾ إشارة إلى الكلام السيئ، وفي هذه الآية تلميح إلى ما كانوا عليه في الدنيا، وأن من أعظم صفاتهم حفظَ اللسان، فهم يتكلمون في الدنيا بالكلام النافع المفيد، الذي إما أن يكون ذكرًا لله، أو علمًا نافعًا، أو إحسانًا إلى عباد الله، أو تسلية مؤمن، أو تطييب خاطر، أو دفاعًا عن حق، أو ردَّ خطأ، فليسوا من أهل اللغو الذين يكثرُ فيهم الهرج والمرج والقيل والقال، وليسوا من أهل الكلام الباطل الذين يتزيَّنون بالأباطيل والألاعيب والأكاذيب، ولهذا جُوزوا في الجنة بذلك، و«الجزاء من جنس العمل».

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٣١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٠٧).

و«الكِذَّابُ» هو التكاذب فيما بينهم، أن يكذِّب بعضهم بعضًا، فيقول هذا لهذا: كذبت. أو يكذب بعضهم على بعض، وهذا كله ليس في الجنة، وفيه إشارة إلى أن ضبط اللسان من أعظم الأسباب التي يتخذها العبد إلى ربه سبيلًا لنيل مرضاته.

* ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ [النبأ:٣٦]:

بخلاف أولئك الذين قال فيهم: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾، وهذا دليل على أن هذا من الله تعالى للمؤمنين فضل، ومنه سبحانه بالنسبة للكافرين عدل، وهو ﴿ جَزَآءً ﴾ أي: أن ثَمَّةَ عملًا لهم في الدنيا فجُوزوا عليه بالجنان، وهو مصداق لقوله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]؛ أي: بسبب عملكم في الدنيا، وليس المعنى أنهم لم يجازوا إلا بأعمالهم، بل أعمالهم سبب لنيل الرحمة، والرحمة لا حد لها، فجوزوا بالحسنة عشرًا وثماني عشرة وعشرين وخمسًا وعشرين وسبعًا وعشرين وخمسين وسبعمائة وأضعافًا كثيرة لا يقدر قدرها إلا الله.

﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾، بيان لمصدر الجزاء. أي: من عند الله، فهو سبحانه المجازي.

وفيه دليل على الفضل والعطاء، ولهذا قال: ﴿ عَطَآءً ﴾، فليس هو محض جزاء لهم، بل لو جُوزوا بأعمالهم ما وصلوا إلى هذا، وربما استنفدت أعمالهم النعم التي أُعطوها في الدنيا، ولهذا قال: ﴿ عَطَآءً ﴾، أي: فضلًا وتكرُّمًا من الله تعالى.

ومن معاني ربوبيته سبحانه: رحمته بخلقه ومجازاته لهم؛ ولهذا لم يذكر هذا بالنسبة للكافرين؛ لأن المقام مقام توبيخ وتقريع وتخويف.

﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾: جاء في مواضع أنهم أُعطوا بغير حساب، كما قال: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [الزمر:١٠].

فيقول أهل اللغة: إن ﴿ حِسَابًا ﴾ هنا ليس معناه: أنهم حوسبوا على أعمالهم وجوزوا عليها، وإنما: ﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾، أي: عطاءً كبيرًا بغير عَدٍّ ولا إحصاء، فيُعطى

ثم يُعطى ثم يُعطى، حتى يقول: «حسبي.. حسبي..». أي: يكفي، فيُعطى حتى تنقطع مسألته، كما في حديث جابر رضي الله عنه: «**فلما رأى أن ليس لهم حاجةٌ تُركوا**»(١).

وأهل الجنة كلما تطلعت نفوسهم لشيء تحقق لهم بفضل الله تعالى عليهم، فلهم كل ما تمنوا، لا مثنوية ولا رجعة ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ [ق:٣٥]، أي كل ما يريدون، قصورًا، أو أفلاكًا.. أو كواكب، أهلًا.. مالًا.. ولدًا.. كل ما يخطر على البال، وما لا يخطر عليه أيضًا؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق:٣٥]، أي: ما لم يشاؤوا ولم يخطر ببالهم، وقال هنا: ﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾.

أن ينعَّم المرء في الدنيا مائة سنة بصحة وهناء وعيش رغيد ومال وفير وزوجة حنون وذرية صالحة، يشعر بالسعادة في مأكله ومشربه ونومه وحديثه وسفره وإقامته، ويستمتع بلحظاتها، فهذا عطاء لا يقاومه شكر، ولا يقدَّر بثمن، فكيف بنعيم الجنة السرمدي؟!

وكيف لا يكون العطاء بهذا القدر وهذا الفضل والرحمة، وهو عطاء رب السماوات والأرض، فهو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، وعطاؤه كلام، وأمره كلام، وعقابه كلام: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، هذا معنى كون عطائه كلامًا، ومَنْعِه كلامًا، فإذا أراد شيئًا قال له: ﴿ كُن ﴾ فكان، فهو يخلق لهم بكلامه ما يتنعَّمون به.

* ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ [النبأ:٣٧]:

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: خالقها ومدبرها وهي مسخَّرة بأمره تسخيرًا جبريًّا لا حيلة لها فيه ولا ثواب.

﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وما فيهما من إنس وجن، وخلق وبشر، وملائكة، ونجوم..

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

وغيرها، ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾، أي: ما بين السماء والأرض، فهو مالكه وخالقه ومدبره.

وقرأ عاصم، وابن عامر، وغيرهما: ﴿ رَبِّ ﴾ بكسر الباء؛ لأنها بدل من قوله: ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ في الآية السابقة، وقرأها الجمهور بالضم «ربُّ» على أنها ابتداء[1].

ثم قال سبحانه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾، اختار هذه الصفة؛ لأنها مناسبة ولائقة بمقام الرحمة بالمؤمنين وجزائهم.

وفي هذا الاختيار توبيخ للكافرين؛ لأن هؤلاء إذا كانوا هلكوا وعُوقبوا -مع أن الذي عاقبهم هو الرحمن- فمعناه أنه لم تُجْدِ فيهم طرائق الخير وأسبابه وأبوابه وتمحَّضوا للشر والكفر والعدوان، فلا يهلك على الله تعالى إلا هالك.

﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أي: في ذلك الموقف، لا يستطيع الناس مخاطبة الله عز وجل؛ لأن المقام مقام هيبة وجلال ترتعد منه الفرائص ويخافه الناس حتى الأنبياء والملائكة.

* ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨]:

صار الوصف للمشهد كله، فالخلق قيام لرب العالمين، إنسهم وملائكتهم، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:٦]، ويشي هذا برهبة الموقف وعظم شأنه وهول مشهده.

وفي ﴿ ٱلرُّوحُ ﴾ أقوال:

١- أنه جبريل عليه السلام، كما في موضع آخر في قوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ [القدر:٤].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ٨٦)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٧٠)، و«حجة القراءات» (ص ٧٤٧)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٢٧٣).

٢- المقصود بالروح: كل ذي روح من الإنس والجن.

٣- أن يكون خَلْقًا من خلق الله عز وجل، الله أعلم به.

والأقرب هو العموم، فيدخل جبريل والملائكة وغيرهم، ويكون المقصود بالروح هنا: المخلوقات ذوات الروح مما نعلم وما لا نعلم، فهي تقوم أيضًا، وهذا أنسب للسياق؛ لأن المقصود أصلًا بالبعث والمحاسبة هم أولئك المخلوقون العقلاء المكلفون، والله أعلم.

وبذا يكون ذكر الروح تأسيسًا وليس تأكيدًا أو ذكرًا خاصًّا.

وكل ذي روح يقوم، والملائكة يقومون صفوفًا بعضهم خلف بعض.

﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ يفيد أن في ذلك المشهد الرهيب صمتًا مُطْبِقًا، بخلاف عادة الناس فإنهم إذا احتشدوا في منتدياتهم ومجالسهم وساحاتهم تسمع منهم الضجيج والصياح، لكن في ذلك الموقف: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه:١٠٨]، وكما في قوله: ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [طه:١٠٣].

وقوله: ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾، لها ثلاثة معانٍ:

١- لا يتكلمون إلا همسًا فيما بينهم.

٢- لا يتكلمون مطلقًا، وذلك في بعض مواقف القيامة، فهم حينًا يتهامسون، وحينًا يتوقفون حتى عن الهمس.

٣- أنهم لا يخاطبون الله عز وجل، ولا يتكلمون إليه.

﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾، وهم الرسل وغيرهم من الشافعين.

وقد اشترط تعالى الرضا والإذن، فقال: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨]، ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه:١٠٩]، فهنا قال: ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أي:

ورضي له قولًا، وهو سبحانه يعلم أن هؤلاء الذين أذن لهم بالكلام لا يقولون إلا صوابًا، مثل شفاعة سيدنا محمد ﷺ في فصل القضاء بين الناس، والشفاعة في بعض المؤمنين أن لا يدخلوا النار، والشفاعة في بعض مَن دخل النار أن يخرجوا منها، والشفاعة في أهل النار أن يُخَفَّف عنهم من عذابها، والشفاعة في بعض أهل الجنة أن تُرْفَع درجاتهم ومنازلهم فيها.. إلى غير ذلك مما هو خير وثواب يحبه الله عز وجل.

* ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ:٣٩]:

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ إشارة إلى عظمة ذلك اليوم، الذي هو اليوم الحق، خلافًا لمن كذَّب به، فهو حق لا مرية فيه، يبيِّن صدق ما جاء به المرسلون.

واليوم الحق خلافًا لأيام الدنيا، فهي لعب ولهو، وأشبه ما تكون بالباطل، لقصرها وسرعة تصرمها ونسيان أفراحها وأتراحها، وتحولها من صفة إلى أخرى.

اليوم الحق الذي يُفْصَل فيه بين الناس، ويُقْتَصُّ لبعضهم من بعض، حتى في أصغر الأمور وأحقرها.

قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ فيه إشارة إلى أن سلوك الطريق الصحيح مرهون بإرادة الإنسان ومشيئته، ولهذا فلا وجه لأن يحتجَّ أحد بقَدَر الله على المعاصي، فإنه ما عصى اللهَ أحدٌ، ولا ترك طاعة إلا وهو يعمل ما تملي عليه نفسه، وتحفِّزه إليه رغبته وشهوته وميله، فالإنسان يجد ضرورة في نفسه أنه يُقْدم على الأشياء التي يحبها ويترك الأشياء التي يكرهها، وهذا هو الأمر الذي يُحاسَب عليه الإنسان في الآخرة، وهو لا يدري ما المقدور إلا بعد أن يفعل ما فعل، والقدر ليس قسرًا للمكلَّف على ما لا يحب، بل هو إذن الله للعبد أن يفعل أو لا يفعل، ولو شاء الله لقسر الناس على ما يريد ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام:١٠٧]. ولكنه لم يفعل، بل تركهم وإرادتهم الحسية الضرورية في عمل الآخرة كما هي في عمل الدنيا سواء بسواء.

وقال: ﴿ٱتَّخَذَ﴾، ولم يقل: (أخذ)؛ لأن ﴿ٱتَّخَذَ﴾ أقوى، وهو دليل على الاستمرار، وعلى أن الإنسان كدح حتى شقَّ له طريقًا إلى ربه، وكلمة ﴿ٱتَّخَذَ﴾ تستعمل في مادة اللغة على الأمر المعتاد المتكرر كاستعمال الآنية والملابس والإماء والفرش والمواضع والبساتين ونحوها، فكأن المعنى هنا أنه كرر العبودية بصيغها المتعددة حتى صارت سجية وطبعًا، ومع تراكمها الزمني سهلت عليه، وذل لها قلبه ولسانه وجوارحه، وذهبت عنه مع الزمن وتقادم الأيام دواعي الشهوات ونوازعها، ومواضع الشبهات والتباساتها، فآمن عقله وقلبه وجوارحه، والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

و«المآب» هو الطريق والمرجع والمنهج الذي يسلكه.

* ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

آية خاتمة جامعة لأول الحديث وآخره، يتكلم تعالى بضمير المعظِّم لنفسه، المعظَّم من عباده: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾، والإنذار هو التعليم على سبيل التحذير والتخويف، وهو واضح في هذه السورة، بذكر النار وعذابها وهول الموقف، وقدَّمه لتقدمه في السياق ولطبيعة الحال التي نزلت فيها السورة؛ حيث كان النبي ﷺ يواجه التكذيب والعناد بمكة.

وكيف يكون هذا العذاب قريبًا؟

(١)- يجوز أن يكون المعنى أن يوم القيامة أجل معدود، وميقات معلوم، إلا أنه قريب بالقياس إلى سرعة أيام الدنيا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١].

(٢)- أو يكون قريبًا باعتبار أن المقصود عذاب الدنيا؛ لأن الله أنذرهم عذاب الدنيا والآخرة، كما وقع لهم في بدر وفتح مكة، وهذه كانت للمخاطبين أنفسهم

وليس لجنسهم، كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

(٣) ومن معاني كونه قريبًا: أنه مرهون بالموت، فإن الإنسان إذا مات قامت قيامته.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ بعينه ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، والمقصود: ما عمل، وما سمعت أذنه، وما مشت إليه قدمه، وما فاه به لسانه، وهو جارٍ على لغة العرب في التعبير باليدين، والمقصود: الجوارح.

وقوله هنا: ﴿يَنظُرُ﴾ يعزِّز ما رجَّحناه أن المرء يوم القيامة يرى صورته وهو يعمل أو يقول، وهي مسجلة كما وقعت، تُرى وتُسمع وتُدْرك بما لا يدرك في الدنيا.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ إشارة إلى أن أصل الوعيد للكافرين، وأن المؤمن بمنجاة من ذلك كله، وإن عُذِّب في ذنب ما إلا أن مَرَدَّه بإذن الله إلى رحمة الله ورضوانه، ولهذا قال هنا: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، وفي قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾، إشارة إلى بُعْد هذا الأمر، وأنه صار مجرد أمنية!

وقد يجوز أن يكون المعنى: أنه يتمنى ذلك إذا رأى الحيوانات والوحوش قد استحالت ترابًا، حين يقال لها: «كوني ترابًا»، فتكون ترابًا، بعدما يُقتَصُّ لبعضها من بعض -كما قاله بعضهم[1]- فيتمنى مصير الحيوانات وهو تحوُّلها إلى تراب، ويحتمل تمنِّي أنه لم يُخلق؛ لأنه مخلوق أصلًا من التراب، أو لم يبعث بعدما هلك، كما قال: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة:٢٧].

وكلا المعنيين قريب، والله أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «العظمة» لأبي الشيخ (٣/ ٨٢١)، و«المستدرك» (٢/ ٣١٦)، (٤/ ٥٧٥)، و«البعث والنشور» للبيهقي (ص ٣٣٦)، و«السلسلة الصحيحة» (١٩٦٦).